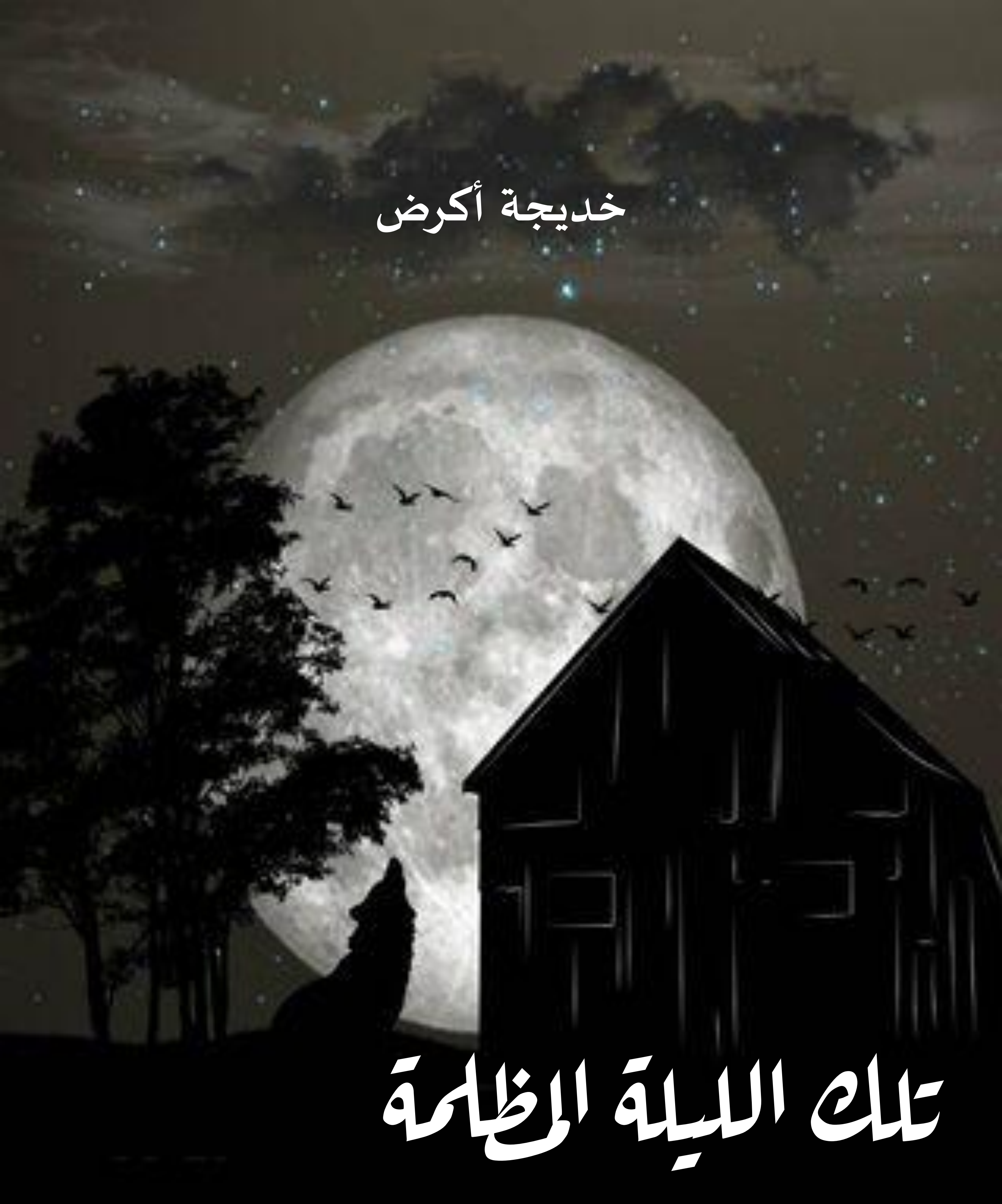


خديجة أكرض

تلك الليلة المظلمة

رواية

خديجة أكرض

تلك الليلة المظلمة

رواية



تلك الليلة المظلمة

الحياة، أشبه بتلك المعركة التي لا بداية لها ولا نهاية، أشبه بالعاصفة في منتصف الليل، أشبه بالغيوم في ليلة ممطرة.

ليلة... كانت طويلة جدا. مخيفة وجميلة في الوقت نفسه. بدت وكأنها دهر من الزمن، ظننتها لن تنتهي، ظننت أنها ستدوم ولن تمرَّ أبدا.

في الخارج عمّ الصمت، عمّ الظلام، وساد السواد. لا نجوم هناك ولا بدر.

رأيت هذا من خلف ستار النافذة، رغم أن الضباب يملأها إلّا أن كل شيء كان واضحا، كان من الواضح أن كل هذا سينتهي يوما ما.

كان يظهر جيدا أن النهاية على الأبواب لكن البداية تليها مجددا. سيتكرر الخوف ذاته، ذات العاصفة والبرد نفسه، رغم أنّي بين الجدران وتحت سقف المنزل إلّا أنْ لا فرق بيني وبين القطط في الخارج كلانا تائه، هي تائهة بين قطرات المطر والبرد القارص وأنا تائهة بين برودة جدران هذا البيت الخالي، فارغ بكل تفاصيله المخيفة، يملأه الصمت والهدوء القاتل، سكون غريب حتى أنني أكاد أسمع صوت دقات قلبي وأنفاسي الحارة.

المكان مرعب جدا، لا يوجد أحد سواي هنا؛ أنا وتلك النار أمامي تأكل الحطب لتنير البيت، أنظر إليها جالسة على كرسي خشبي قديم، وبداخلي شعور بالحنين، حنين إلى ورقة، أشتهي قلم ذو حبر أسود كسواد سماء هذه الليلة، اشتهي أن أغوص في عمق كتاب فارغ، أن أضيع بين صفحاته المنقوشة بحروف دليلة زخرفتها يدي المرتعشة، هل هذا خوف، أم هو توتر؟

شعور دخيل اِقتحم جسمي أشبه بالانتعاش، أمسكت القلم ببساطة أعطيته الحرية ليملأ الورقة، بعدما تشابكت الحروف وتاهت الكلمات والجمل نفذت من رصيدي.

يقولون أنّ الحزن يقودنا إلى الكتابة، لكنّي لا أدري ما قد جاء بي إلى أحضان الصفحات، قد يكون دفئ الكلمات، دفئ لم أجده على أرض الواقع، دفئ لم أنعم به بين البشر أحسست به بين الحروف.

في تلك الليلة المظلمة، أدركت الثمن الباهظ لليل، لقد أصبحت أعيش الليل لأموت في النهار وأنتظر الليل على نار موقدة لأحيا من جديد. وسط سواد الليل لمعان النجوم وضوء القمر، عمق كبير ما بين صمت الجوارح وضجيج الأفكار أحداث كثيرة قد تكون ذكريات وقد تكون أحلام. هي تلك الأحلام التي يبدو أنها ستظل مجرد أحلام، مؤنسة وفية لي تزورني كلما جمعت الحطب ووضعته في المدفئة أجلس على الكرسي الستيني وأسند رأسي على كتفه لأسافر إلى ذلك اليوم، لا أعلم متى سيأتي ولا في أي زمن هو. لقد مررت به منذ ثمانية عشر سنة، كان يوما ممطرًا وجميلًا، وأجمل ما فيه ليلته، صافية سمائها رغم الغيوم التي تحجبها، هادئة رغم صوت البرق والرعد القويان إلّا أنها كانت مختلفة وفريدة من نوعها، جمعت بين الرعب والجمال بين الحزن والسعادة بين كل ما هو جميل وكل ما هو قبيح مخيف، رائعة يتخللها بعض القبح. لقد أضحت حياتي بعدها سلسلة أيام متشابهة والليل محطة انتظار في كل يوم أكرر نفس الفعل، أجلس على هذا الكرسي وأمسك القلم وورقة بيضاء أقيّد أيامي، أدون كلما صادفته فيه، ومن يدري؟ قد تعود تلك الليلة يوما وتعيد كل ما أخدت معها، وقد يستمر الانتظار..

في صباح مبكر من إحدى أيام الجمعة، كنت أناجي النجوم وأنتظر الشمس في محطة الشروق لعلها تكون اليوم مضيئة، لعلني أنظر إلى السماء فأرى نورها، ويا لأسفي على ذلك الانتظار، عانقت خيبة أمل جديدة وغادرت، أمسك أطراف سروالي الواسع عائدة إلى الظلام، وعيناي تتجولان في أنحاء هذا المنزل، استوقفني صوت مزعج، صوت غريب على مسامعي ولم أسمعه منذ وقت طويل، التفتّ مسرعة إلى مصدره، كان آتٍ من خلفي مباشرة.

في هذه اللحظة كلام كثير وأحاسيس مبعثرة عاصفة ضخمة من التساؤلات وقفت على طرف اللسان تموج بين عقلي المتوقف وقلبي الذي يكاد يخترق صدري بقوة، هل حان الوقت؟ هل أتى ذلك اليوم حقا؟ ليت أحدهم يخبرني، رفعت قدمي ببطء وكأنني أسير في بركة من الطين فتحت الباب دون أن أنتظر لثانية فقد أصبحت اشمئز من هذه الكلمة.

ياله من شعور باليأس، إنه العجوز مجددا، لكن لا بأس فقد افتقدته فأنا لم أره منذ شهور، لم ينتظر مني إذنا بالدخول فقد التحق بمكانه المعتاد وجلس ينتظرني، أقفلت الباب وذهبت نحوه أسير بملل وخمول وكلي نفرة من حكايته الجديدة، مهلا!! فأنتم لا تعرفون من يكون إنه العم "حكاية".. نعم هذا هو اسمه: "حكاية"، رغم أن حكاياته مملة لكنني لا أنكر أنه لطيف منذ زمن وهو يأتي كلما أتيحت له الفرصة يجلس هناك ويبدأ بروي حكايته مباشرة حتى أنه لا يسألني عن حالي، لا بأس لقد أطلت التفكير فهو قد بدأ حكايته منذ دقائق فلأستمع.

العجوز: المطر، وقطرات الندى، هي بداية الشتاء، هي بداية الحياة، هي التضحية والفداء، التضحية بالشتاء ليحين الربيع.

"مارس" زمن البرد القارص والثلوج العالقة في قمم الجبال، هو شهر الرحمة وشهر الذنب، هو شهر الهواء الجليدي المنعش الذي لا يجد طريقه إلى الرئة بسبب انسداد الأنف المزعج، في إحدى أيامه الأولى وعلى بعد يوم واحد من عشرينه نعم بالضبط في اليوم الثامن عشر، على فراش قديم مكون من خيوط بيضاء وأخرى حمراء انسجمت لتستقبل جسدًا عاريًا يحمل روح جديدة التحقت بالعالم للتو على إيقاع صرخات ألم وصرخات خوف وغربة، كسرت صمت الليل وهدوء هذه القرية.

هي بلدة مليئة بالحسد، الغيرة والأحاسيس الذميمة على الأقل، هذا كل ما رأيته فيها منذ حين، أناس يعيشون على أمل هطول الأمطار ويخافون بشدة ضياع محصولهم الزراعي فهو محور حياتهم آنذاك كل شيء يدور حول القمح الذي يستخرجونه، فمنه طحينهم وهو علف بهائمهم وهو سلعتهم في السوق.

لقد مر الوقت بسرعة، وأصبح ذلك الجسد العاري الصغير في عمر الستة أشهر، نعم لا يزال صغيرا لكن هناك أشياء أخرى تغيرت، فذلك النفور وعدم الرغبة به من طرف

عائلته لكونه جسد أنثى أصبح تقبلًا وتعايشًا فلا مفر من تحمل المسؤولية لديهم، الأنثى أنثى والذكر ذكر لا فرق بينهما فكلاهما يحمل الجوهر ذاته في داخله (الروح)، لابأس فلننسى المشاعر ولنتمم القصة.

إلى حد الآن لم أذكر تلك الجدة القبيحة نوعا ما، لقد كانت أم أبو الأنثى الصغيرة كانت حياتها طويلة ومليئة بالأحداث التي لا تهمنا في شيء فقد انتهى بها المطاف في بيت على رأس جبل بعيد عن الناس ومظلم لا تصله الكهرباء ولا الماء، لقد كان ذلك البيت كالقبر محاط بالصخور الكبيرة وبعض الشجيرات الصغيرة من اللوز والزيتون التي لا تعطي شيئا، عاشت الجدة العجوز هناك منذ سنين طويلة، في البداية كان المنزل مليئًا بالناس، من زوجها الثالث وأبنائه أضافة إلى ابنها وفتاتها الصغيرة، لكن الزوج توفي والأبناء رحلوا، فبقيت تعيش رفقة ابنها ذو العشر سنوات وابنتها الصغيرة، لا يمكنني أن أقول أن حياتهم أصبحت جميلة ومليئة بالأفراح والسعادة لكنهم على الأقل ظلوا على قيد الحياة، الطفل الصغير أصبح رب الأسرة والمسؤول عنها يشتغل هنا وهناك ويتعب هنا وهناك، عمل في الرعي إلى أن تجاوز الأربعة عشرة سنة كل تلك السنوات مرت على نفس النمط مليئة بالأسى بالقسوة والضرب والليالي الممطرة الباردة والدموع، ولم يعد هذا بالشيء الغريب، فقد أصبح مألوفًا للغاية، أَلِف الطفل المعاناة وأصبحت جزء من حياته البسيطة.

انتهى زمن الرعي الخاص به وجاء زمن جديد، من القرية إلى المدينة، انتقل من قريته متجها إلى أكبر مدينة في ذلك البلد، تاركا خلفه أسرته الصغيرة وهي تنتظر قوتها الآتي من عرق جبينه ومحصولها الزراعي السنوي.

نظر العجوز إليّ وأكمل قائلا: لن أغوص في الأحداث الدقيقة فالوقت يداهمني.

المهم هو أن هذا الشاب قد عاد، وذهب مرة أخرى ثم عاد، ثم ذهب.. ظل يذهب ويعود إلى أن تزوج بالحسناء "زهرة"، اسم على مسمى، كانت جميلة ومن قريته هي الأخرى حياتها ليست بأفضل من حياته لكنها كانت مستقرة شيئا ما، زواجهما لم يحدث بشكل عادي، فقد رفض جد الفتاة ذلك الشاب بدعوى أن أمه لم تكن محبوبة بل قبيحة مع الكل وأغلب سكان القرية لا يحبونها ولا يتحدثون عنها بشكل جيد، لكن رغم ذلك أنتهى أمر بزواجهما بفضل أبي الفتاة الذي كان ذو رأي مختلف واتخذ القرار بشأن ابنته توافق عن زواجها.

تسبب هذا لزهرة في الطرد من طرف جدّها فوجدت المسكينة نفسها خارج المنزل وأمام باب العجوز القبيحة التي استقبلتها تزوجت ومر كل شيء على ما يرام، إلّا أن الحياة بعدها لم تكن هادئة أو مستقرة أو ما شابه بالنسبة للعروس الجديدة فقد بدأت بؤر سوداء ومشاكل يومية بالظهور، خاصة وأن الزوج كان عمله يفرض عليه السفر والغياب لمدة طويلة، أنجبت زهرة أول مولود لها وكانت بنتًا جميلة تشبه أباها كثيرا، أما بشأن المشاكل والصراعات فازدادت بعد ولادة البنت الأولى، زهرة لم تعد تحتمل ذلك، فذهبت مرارا إلى بيت أبيها الذي كان هذا الزواج من صنع يده، تمشي لمسافات طويلة حافية القدمين حاملة ابنتها الصغيرة أحيانا، وأحيانا تتركها هناك في المنزل المظلم.

ما باله ينظر إليّ هكذا؟ ولماذا صمت؟

لا شك أنّكِ لم تفهمي مجرى القصة إلى حد الآن، وما علاقة البداية بما نحن فيه الآن.

استمعي، فالصبر بلغ منتهاه عندما ظهر ذلك الجسد العاري الصغير وسط ظلام تلك الليلة والصراخ الذي كسر القرية حينها. تلك الأنثى كانت الابنة الثانية والأصغر لزهرة، وبعد ولادتها ودون أي شك ما كان من الجدة سوى السب والشتم والتنقيص من الأم، أم الفتاتين، تصيح وتقول: "لماذا بنت؟!!، أريد ولدا غير ابني، نحن نريد رجلا لا بنت تتلو

الأخرى". لا داعي لرفع الحاجبين كلانا يعلم أن الناس، إننا وإنكم وإنهم يفضلون الذكر على الأنثى، يشمئزون من الأنثى ويستعيرون من قدومها إلى الحياة فهي عار ووأدهن لم يكن على يد أمهاتن بل وأدهن الرجال.

مال بال هذا العجوز "لكنك رجل يا عم حكاية"

لقد ابتسم وقال "لكنني لم أكن أتمنى أن أكون رجلا"

لكن رغم ذلك كان قدوم هذه البنت المنبوذة خيرا على أمها فبعد أن أصبح عمرها ستة أشهر رحلت العائلة الصغيرة من القرية بصفة نهائية، رحلوا إلى أبعد مكان يمكن، الآن الوضع لم يعد يستدعي الصبر وحده بل فاق ذلك وأصبح جحيما لا يطاق، ذات ليلة كانت باردة جدا، والجو مغيّم والمطر على وشك الهطول، ظلام عظيم كان يخيم على السماء، خرجت زهرة حاملة ابنتها الصغيرة على ظهرها وممسكة الكبرى بيدها بقوة رفقة زوجها في صمت خشية أن يشعر بهم أحد من القرية. انتهى ذلك الخوف عندما صعدوا على متن الحافلة، فقد كان من الممكن ودون سابق انذار أن تنقضّ عليهم وحوش القرية الآدمية وتفترسهم هناك ينهكونهم ضربا أو أكثر من ذلك قد يقتلونهم، لكن هذا لم يحدث منه شيء واكتملت رحلتهم الشاقة جدا.

وصلوا بعد ساعات طوال إلى مدينة صغيرة مختلفة اللغة والتقاليد والعادات، أناسها لا يشبهونهم في شيء ولا يعرفون فيها وعنها شيء.

لكن لحسن الحظ أخ زهراء الأكبر كان يقطن هناك في تلك المدينة، هاجر هو الآخر قبل سنوات قليلة إليها واستقر بها، فكان ملجئهم الوحيد حيث وجدوا أنفسهم في تلك المدينة التي رغم صغرها إلّا أنها كانت غريبة بالنسبة لزهرة، أمّا فزوجها فقد زارها سابقا من أجل العمل.

ذهبوا إلى منزل الأخ الكبير، وما كان منه إلّا أن استقبلهم في بيته ورحب بهم قضوا أيامًا معدودة هناك، فتصرفات زوجته بدأت بالتغير وأصبحت تعبر بطريقة واضحة عن عدم

رغبتها في مكوث هذه العائلة الصغيرة في بيتها، انزعج أب الأسرة من هذا، وفعل كل ما بوسعه وبالفعل بعد مدة قصيرة استطاع أن يستأجر بيتا لهم انتقلوا إليه في نفس اليوم.

كان أمرا صعبا جدا، أصبحت زهرة تشعر وكأنها في حفرة بلا قعر، أصبحت وكأنها تعيش في أرض بلا سماء، إنه شعور الوحدة، وحيدة هي كعصفور ضاع في غابة كبيرة، غريبة بين أناس لا تعرف شيئا عنهم، ما كان لها من مؤنس سوى الدموع، دموع مغتربة بعيدة عن أهلها وحياتها المألوفة، استعصت عليها الأمور لفترة طويلة لكن في النهاية تأقلمت وألفت حياتها الجديدة تقبلت فكرة أنه لا توجد عودة بعد الآن وأنْ لا حل لديها سوى النسيان والصبر، من أجلها ومن أجل فتاتها وزوجها، من أجل عائلتها الصغيرة.

الآن الحياة أمرها عجيب، ولا يدوم فيها حال من الأحوال، فقد تغيرت حياتهم وأصبحت كلها تدور في تلك المدينة التي كانت في البداية بمثابة منفى لهم، فقد عاشوا هناك لأكثر من ثمانية عشر سنة أصبح عمل الأب كله هناك. وأصحابهم وأناسهم وعائلتهم أصبحت القرية بالنسبة لهم ماضي لا غير، نعم لقد مرت ثمانية عشر سنة، خلال تلك السنوات تغير كل شيء و أول ما تغير هي الأعمار، عمر الفتاتين الصغيرتين، لقد كبرتا و أخدت الدنيا منهن ما أخدت، وذلك الجسد الصغير أصبح جسد لفتاة في الثامنة عشر من عمرها، لم يعد كما كان فقد تغير كثيرا، و نقضت منه أشياء عديدة تحول بمرور الوقت إلى صندوق كبير مليء بالأحزان والآلام الدفينة، ذلك القلب لم يستيقظ بعد، والعقل على وشك الانفجار، صعوبة الحياة ومشاكلها ظهرت بشكل جلي على ملامحها البريئة سابقا، أما الآن فحتى تلك البراءة لم يتبق منها شيء، كبرت كثيرا حتى أنها سبقت سنها "مراهقة في عمر الستين" هكذا يجب مناداتها.

هي الآن يا ابنتي في مكان ضيق جدا، رغم اتساع الدنيا وطول و عرض الأرض، وحيدة وسط الجميع، عالقة في أعماقها لا تستطيع الخروج، ولا التكلم، فقط تعيش وتموت كل يوم في صمت وتنتظر.

" مهلا يا عم، ماذا تنتظر؟"

الخلاص! إنها تنتظر ميلادها.

رحل العم حكاية، لم يكمل الحكاية ليته أكملها. ليته أنهى القصة كلها ودلني على طريق الخلاص، يبدو ان هذا الانتظار سيطول كثيرا، وأن ذلك الخلاص لا يزال بعيدا، بعيد جدا.

فالقصة لم تنتهِ بعد، هذا كل ما يعرفه العجوز لكن هناك أشياء مخفية حتى أنا لا أعرفها، كل ما أعرفه هو أن لا شيء بقي كما كان من قبل، فقد تغير كل شيء وفقدت كل شيء، أشعر أنني تركت كل شيء في بطن أمي، تركت البراءة والروح والصفاء هناك، وخرجت متسخة بغبار الحياة وملطخة بوحل المعصية والأخطاء اللامتناهية، أصبحت أعيش بين الذنب والنقص والألم، ولا أحد منهم يتركني، أصبحت أسير ولا شيء أمامي سوى الظلام، لا طموح ولا هدف ولا حتى أمل في غد أفضل.

لقد قال لي العجوز ذات يوم "عندما يصبح سن الثمانية عشر من حياتك بمثابة نقطة تنتهي فيها قواك وصبرك وقدرتك على المواصلة وحبك للحياة ولا يتبقى منك سوى الأنفاس التي تخرج من أنفك متجهة إلى الخارج هي الأخرى سئمت منك وتبحث عن طريق الخلاص، فاعلمي أنها بداية جديدة وفرصة ثانية منحك إياها القدر ليفتح باب ظل مغلقا طوال تلك السنين".

سألته ما هذا الباب؟

أجاب " أنت "..

هو الظلام أحيانا يجعلنا نكره أشياء ونخاف من أشياء، يجعلنا نعاني من آلام جديدة لطالما خمدت من زمن طويل يجعلنا ننسى أننا ولدنا لنعيش رغم الظلام ولنبحث عن النور أساسا، ولكي نتحرر من قيود الحزن، لكن في بعض الأحيان لا نجد السبيل إلى ذلك لنفس السبب، بسبب الظلام.

في كل ليلة، تزداد شدة المطر ويزداد البرد، الآن مارس لا يمر أبدا، هو ممتد على طول الأيام، والحنين إلى الشمس والنور ونسيم الربيع ودفئ الصيف يزداد كذلك.

هل سبق لك وأن شعرت وكأنك تسقط من مكان عالٍ جدا؟ من ناطحة سحاب أو من برج عظيم، لا شيء أسفلك و لا يوجد شيء فوقك أيضا، كأنك دخيل على البشر لا تشبههم في شيء، غريب بين الجميع لوحدك فقط بعيد عن شيء، بعيد عن النور، عن الناس، عن نفسك حتى. وكأنك تسير في طريق طويل مليء بالظلام، لا ترى سوى نقطة تكاد تختفي من الضوء الخافت الذي يبتعد كلما خطوت خطوة تجاهه، وفي كل خطوة تزداد رغبتك في العودة من تلك الطريق والتراجع نهائيا، لكنك لن تعود إلّا بعد الوصول إلى نقطة النهاية. إلى قمة التعب، إلى مكان ضيق لا تستطيع تجاوزه ولا البقاء فيه، فتعود إلى البداية لكن ماذا لو لم تجد شيء هناك؟ ماذا لو لم تجد أحدًا؟ ماذا لو ذهب الجميع ولم ينتظرك أحد؟ هل سيبقى للعودة معنى؟ أم أنه سيكون من الأهون لو بقيت هناك، في ذلك المكان الضيق. هكذا أنا أعلم جيدا أنني سوف أعود، لكنني لا أعرف متى ولا إلى أين؟ كل ما أعرفه أنه يجب أن أعود. فقد طال هذا كثيرا، أصبحت لا أطيق هذا المستنقع الذي غرقت فيه تحت مسمى الحياة وما هذه بحياة، فأنا لم أحيَ بعد، لحد الآن ما زلت عالقة في مكان ما مسجونة في الفراغ لا شيء أمامي ولكنني لا أستطيع التقدم بخطوة، لم أتنفس بعد، قلبي لم ينبض بعد، وعيناي لم تريا النور

نهائيا، أنا لم أولد بعد، لكن أشعر أن ميلادي اقترب، أشعر أن تلك الليلة في طريقها إلي وفي كل يوم أقضيه في الظلام، يقترب النور أكثر.

لقد بدأ يوم آخر مجددا، لا تقلقوا فهو لن يكون مختلفا عن باقي الأيام الفارطة، كل شيء على حاله المدفئة لا تزال موقدة والمطر يواصل هطوله طوال اليوم، ليل نهار، وصوت القطط ما زلت أسمعه باستمرار، والبرد لايزال يسكن أضلعي وما زلت أنتظر، في بعض الأحيان أتمنى لو ينتهي هذا كله لو ينتهي هذا الانتظار لتكن النهاية كما تشاء، فلينتهي وحسب. الحياة لا تعطينا فرصة أن نعيش كما نريد، أن نحب أشياءنا ولا أن نمتلك الأشياء التي نحبها، تقف في وجه كل ما هو جميل وتدمره، وكأنه لم يكن يوما.

لقد شعرت في يوم بنسمة برد خفيف لامست أعماقي، لون جميل وصوت جميل ورائحة جميلة، لقد اجتمعوا كلهم في تلك النسمة، ظننت حينها أنه زمن جديد ومكان جديد، ظننت أن كل شيء سيتغير وأن هذه الوحدة ستزول، لقد كنت أظن أنني امتلكت الحب حقا وحصلت على شيء مقدس ومميز وجميل للغاية، كنت أظن أنني امتلكت الصداقة.

لكن هل تدري ماذا حدث؟

لم يحدث شيء، وهذا هو ما قضى على آخر ذرة أمل نبضت بداخلي، لم يحدث شيء لم تتحقق الأمنيات والأحلام لم تصبح حقيقة أبدا. انتظرت كثيرا ولم يأتي أحد نهائيا رغم أنني كنت أتوقع هذا إلّا أنه كان قاسيا جدا عليّ، لم أستطع أن أنسى ولا أن أخرج من ذلك اليوم يوم حدثتني الأول مرة لا أنكر أنه رغم كل شيء، أن شيئا ما مميز جذب قلبي إليها هو نفس ذلك القلب الذي لازال ينتظر، ينتظر قدوم المستحيل مجيء الغير ممكن وعودة شخص ميت أو أنه لم يولد أصلا.

هل فهمت الآن لما أكره الانتظار، لأنني انتظرت كل شيء ولم أحصل على أي شيء، أصبحت لا أود سوى الهروب، لكن لا وجهة لي، لا أدري لا إلى أين ولا من ماذا أو كيف أهرب؟ فالظلام ينبعث من كل مكان. عندما جمعتني الأقدار بتلك الإنسانة المميزة التي شعرت بأنها توأم روحي وصديقتي الأولى بعد كل تلك السنين، لقد كانت مثالية لحد غير

ممكن، كل شيء رغبت فيه اجتمع فيها، كانت كتفًا أسند عليه رأسي بدل ذلك الكرسي القديم وكانت الأذن المصغية لي يوما بذل تلك النار التي سئمت من محادثتها، كانت يد العون و المساعدة التي ظننت أنها ستمتد لي يوما بدل هذا الانتظار، لقد كنت أتوقع أن تكون النور وسط كل هذا الظلام، لكنها لم تكن شيء من هذا، لم تسمع ولم تساعدني أبدا، بل أصبحت خيبة أمل جديدة ووجعًا جديدًا و ذكرى سوداء إضافية ازداد كل شيء سوء بعد رحيلها.

"الرحيل"، هو ذلك المطر الذي يأتي في لحظة لا منير لنا فيها سوى الشموع، يأتي و يطفئها فنبقى في الظلام، ظلام حالك ومخيف، لكن أحيانا قد يكون هذا المطر رحمة، قل يكون الرحيل هو الحل الوحيد وفي نفس الوقت الحل المناسب، قد يكون رحيل بعض الأشياء و الأشخاص من حياتنا رحمة من الله لنا، لأنه وفي الاصل لا مكان لهم، ولولا هطول أمطار الرحيل و استمرت الشموع مشتعلة لا أصبح النور الذي أحببناه نار تحرقنا وتحرق كل ما يوجد حولنا، هذا ما أقوله لنفسي كلما أستيقظ ألم الشوق بداخلي و بدأ يسألني لما الرحيل؟

لماذا كلما أحببت أحدهم وظننت أنه تعويض الله على كل ما قد مضى، انقلبت خائبة الظن، فيصبح هو الآخر ضمن قائمة الذين انتظر تعويض الله عليهم، لا أحد يدوم ولا شيء يبقى كما كان في البداية، لا الأشخاص ولا حتى شعوري تجاه الأشياء والأمور، بات كل شيء عاديًّا، كل شيء مألوف، لم أعد أبالي بالوجع، فلتقسوا الحياة كما تشاء ولتسر السفن إلى حيث تشاء، فلا مصير ثالث سوى الوصل أو الغرق، وما الفرق بين الغرق في البحر والغرق في الهموم والحسرة والتفكير اللامتناهي والتساؤل لماذا أنا؟ لماذا في كل مرة لا أجني سوى خيبة أمل تلو الأخرى؟، هل لأنني أقدم كل ما لدي منذ البداية؟ أم لأنني أكشف جميع أوراقي ولا أتقن اللعب؟ أم لأنني أحسن الظن بالبشر وأمنحهم مكانًا عميقًا في نفسي؟

لكن ماذا عساي أفعل سوى النهوض في كل مرة والصمود كأن شيء لم يكن لأنه في النهاية هو خطئي، ولا يوجد قانون يحمي المغفلين سوى قانون الحب، ولا أحد يلتزم به.

تلك الفتاة الصغيرة ذات الروح الصافية النقية، كانت تملك قلبا كبير جدا، كبير يحمل الكثير من الحب والتسامح والطيبة والأمل أيضا، كانت تحب الجميع وتسامح الجميع، كانت دائما ما تظهر القسوة والتكبر لكن ذلك لم يكن سوى قناع يخفي الكثير من الضعف، الكثير من الظن الجيد، كانت تعتبره جدار يحمي طيبتها وقلبها من الشرور الموجودة في هذا العالم، لقد بنت في حياتها الكثير من العلاقات مع الكثير من الناس لكن كلها انتهت بالفشل بعد مدة قصيرة، احتضنت الكثير من الأحلام لكنها لم تتحقق، بعد عامها السادس عشر بدأت حياة أسرتها تتغير نحو الأسوء، مرض أباها مرضًا شديدًا لازمه لسنوات، وأمها زهرة الحسناء تغير حالها أيضا، تفرقت العائلة الصغيرة كلها أصبح والديها يتحدثان طوال الوقت عن الطلاق وأصبحت المشاكل تنهمر عليهم من كل الجهات، لم يكن لديها الوقت لكي تفهم و تستوعب ما الذي يحدث، فكل شيء أتاها من حيث لا تدري ظلت واقفة في المنتصف لا تستطيع تحريك ساكن.

"في لحظة صمت، سافر بي عقلي إلى عالم لم أسمع به من قبل، عالم مليء بالطرق التي أستطيع أن أرى نهايتها من المفترق، عالم المتناقضات، أبحرت على قارب الحيرة لكي أعبر نهر الضياع وضعت بين ضفتين متناقضتين، فوجدت نفسي مضطرة للبقاء في المنتصف، على قارب الحيرة".

الحيرة، والتيه، شيئان أصبحا يسيران حياة هذه الفتاة، لقد أصبحت تعيش لفترة من الزمن داخل شعور يخبرها باستمرار أنها النهاية، نهاية كل شيء، وأن القصة التي بدأت تلك الليلة المظلمة في تلك القرية آن الأوان أن تنتهي، جاءت إلى هذه الدنيا بالصراخ وسترحل بصمت، شعور غريب لا يمكن وصفه، حين يشعر المرء بنفسه على وشك الاختناق على وشك الموت، لا شيء يثيره رغم جماله ولا شيء يحزنه رغم بشاعته، فالغارق لا يهمه المطر ولا ترعبه العواصف.

هو شعور جميل بقدر ما هو سيء، فالنهاية ليست دائما مأساوية رغم أنها ليست سعيدة أيضا، على الأقل تنتهي الآلام، تنتهي المعاناة وينتهي الانتظار، لم أنتهِ أنا، ولم تنتهي حياتي، لكن انتهت العتمة وانتهت الدموع وانتهى الجحيم.

لقد بدأ شيء ما يتغير، وخيوط الخيال عادت بي إلى ريعان الصبا، إلى الطفولة إلى الزمان الذي مضى وأنا مسجونة بين العيش أو الموت محصورة بين جدران اليأس والحزن، زارتني والأول مرة فكرة هل أنا من أردت هذا؟ هل أنا من اخترت العيش هكذا؟ سألت نفسي هل أستطيع الخروج من هنا؟ هل يمكنني حقا مغادرة هذا البيت بلا عودة، أن أطفئ هذه النار وأفرغ المدفئة، ثم أشكر هذا الكرسي القديم على كل تلك الليالي التي حمل فيها رأسي على كتفه، أحرق بعدها كل تلك الأوراق التي زخرفتها بحروف مؤلمة كلما رأيتها زادتني من المرارة شيئا، ثم أودع كل شيء واضع نهاية لهذه الحكاية.

لكنني أستطيع حقا أستطيع، لن أنتظر شيئا بعد الآن، لن أجلس هنا مكتوفة الأيدي والأرجل وعقلي متوقف طوال الوقت والحياة تمر كل يوم، لقد أدركت أنني لا يمكنني الهروب من حقيقة أني ولدت، إنني حية أرزق وقلبي ينبض بداخلي كل يوم، لكنني لا أشعر به فقط، لن أنتظر تلك الليلة أن تعود، قد يأتي الفرج على هيئة صباح جميل أو نور الشمس الساطع أو أنه قد أتى والخطوة التالية أنا من يجدر بي القيام بها.

فتحت باب البيت المظلم وخرجت إلى الخارج أنظر إلى السماء بخجل وخوف في الوقت نفسه، نظرت حولي لا وجود للظلام هنا بقيت أسير وأسير وأسير، لا أعرف إلى أين لكنني لا أود التوقف بالمرة لا أود العودة إلى الخلف ولو بخطوة واحدة لا أريد الرجوع أبدا، مشيت بلهفة نحو أول طريق ظهر أمامي، كان طريق طويلًا جدا، لم أستطع أن أرى حده، توقفت للحظة لا أدري ما الذي يجب عليّ أن أفعل هل أتقدم في هذه الطريق التي لا أعرف نهايتها إلى أين سوف تقودني؟ أم أن أعيد النظر في ما أقوم به، هي لحظة عجز

عجزتُ فيها عن الحركة عجزت عن تفسير شعور غريب يملأ كياني، لقد فقدت القدرة على التفكير حتى...

لكن ماذا سأفعل لو عدت؟ فأنا لم أترك شيئا خلفي لكي أعود إليه، فالذي ذهب وترك كل شيء خلفه بإرادته لا يملك حق العودة سأستمر، سأذهب في هذه الطريق ولن أتراجع مطلقا.

هناك عدة أشياء لا معنى لها في هذه الحياة، كأن تقف على رصيف الانتظار وكأن شيئا سيأتيك حقا، وهناك الكثير من الطرق التي لا تنتهي وسنظل نمشي فيها طوال عمرنا، كطريق الأخطاء، فهو لا نهاية له، لذلك لا تحاول التخلص من الأخطاء بصفة كاملة، الآن هذا غير ممكن، كل ما عليك هو اختيار الأخطاء المناسبة، والوقوف عند كل خطأ وتعلم منه شيء، اجعل منه دائما بداية جديدة.

طريقي كانت طويلة جدا، دربي هو من اختارني لست أنا من اختارته، مشيت كثيرا دون أن ألتفت، كنت في كل خطوة أخطوها يتضح لي جسم شخص يقف أمامي، ظننته مجرد طيف في الأول لكنه لم يكن كذلك، أتدري من كان؟

لقد كان هو مجددا، العم "حكاية"، كنت أظن أنني لن أراه مرة أخرى لكن حدث العكس، اقتربت منه بسرعة أنظر إليه وهو واقف يبتسم ابتسامة لم أستطع قراءة ما يوجد خلفها، سألت نفسي قبل أن أسأله ماذا يفعل هنا؟

لم يمنحني الفرصة لكي أحدثه، فقد سبقني وتكلم بنبرة صوته المعهودة وقال "أتعلمين ما معنى "الطريق" يا بنيتي؟

لم أستطع أن أجيب، شعرت بالخوف شيء ما بقيت أحدق به فقط، وكأنه شعر بخوفي هذا وأتمم كلامه دون أن ينتظر جوابي أساسا.

اجلسي بجانب تلك الشجرة لكي أحكي لكي آخر قصة يا ابنتي.

جلست وكلمة آخر قصة تتردد في أذناي ماذا يقصد هذا الرجل الشيخ...

العم حكاية يتحدث: "في طريق طويلة، طريق الحياة، نسير جميعا ولا أحد يستمر سيره إلى الأبد، لكل منا نهاية تنتظره، ولكل واحد منا درب مظلم يجب عليه أن يذهب فيه إلى آخره، أتعلمين لماذا؟ الآن النور دائما موجود في مكان ما في تلك الطريق، وهذه الطريق التي تنظرين إليها الآن أمامك، هي من حملتك إلى هذه النقطة، وهي من ستحملك إلى النور أيضا، الجميع يتألم والكل يعيش أوقات صعبة يسأل نفسه عندها هل سينتهي هذا الألم يوما؟ يجد نفسه ضاع عن طريقه، ولا يعرف كيف يعود إليها، لكن الأمر المحتوم هو أنه سيجدها مهما طالت مدة ضياعه، لأننا لا يمكننا الابتعاد عن أشياءنا لمدة طويلة، وأنت لم تتمكني أيضا يا ابنتي، فقد عدتي إلى طريقك.

أتذكرين قصة الفتاة المنبوذة تلك، ابنة مارس؟ سأتمم لك القصة الآن.

في إحدى الأيام الجميلة في هذا العام، يوم بدأ بشمس مشرقة دافئة أضاءت الدنيا وملأتها ضوء، يوم بدأ فيه الظلام يتلاشى والطريق أصبحت واضحة سحبت الفتاة نفسها من عالم اليأس ضربة واحدة، لم تفكر كثيرا أخذت تمشي في طريقها، في أول طريق وجدت أمامها، الصبر يا بنتي مفتاح الفرج، يجعلنا ننسى كل ما مر بنا من قهر وحزن مهما كان شديد وهي صبرت كثيرا، صبرت لدرجة أن الفرج أتاها بعدما لم تعد تريده، أفرج عليها من سجن الظلام والوحدة، أفرج عليها وغادرت المكان الذي كانت تعيش فيه منذ أن فتحت عينها في الدنيا، لقد كانت المسافة التي تفصلها عن نفسها وعن بداية حياتها قصيرة جدا، قطعتها في عشرين سنة لا أكثر، ألم أخبرك أنها صبرت كثيرا.

المهم في الأمر أن كل شيء تغير في لحظة واحدة، لقد عثرت على الشيء المفقود في حياتها بعد بحث دام طويلا، بعد مدة أطول توازي عمرها تلاشى الظلام وحان ميلادها..

كيف ذلك يا عم حكاية؟

انظري هناك، تلك هي الطريق التي سوف تقودكِ إلى الخلاص، اذهبي ولا تعودي مجددا..

مهلا يا عم!! لكن من تكون؟

ابتسم " أنا الأمل......